الجسد والغروتيسك في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية الثقافة الأمازيغية والجسد

Fouad Azarual

Édition électronique

URL : <https://journals.openedition.org/ht/716>

DOI : 10.4000/ht.716

ISSN : 2678-5420

Éditeur

Presses universitaires de Bordeaux

Édition imprimée

Date de publication : 31 décembre 2015

Pagination : 96-101

ISSN : 2261-4591

Référence électronique

Fouad Azarual, « الجسد والغروتيسك في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية », *Horizons/Théâtre* [En ligne], 7 | 2015, mis en ligne le 01 juin 2017, consulté le 17 mai 2022. URL : <http://journals.openedition.org/ht/716> ; DOI : <https://doi.org/10.4000/ht.716>

La revue *Horizons/Théâtre* est mise à disposition selon les termes de la Licence Creative Commons Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International.

FOUAD AZARUAL

Fouad Azarual est chercheur et professeur habilité à l'Institut Royal de la Culture Amazighe. Ses axes de recherches sont la culture, l'art et la littérature amazighe. Il a plusieurs publications portant sur les arts du spectacle et les performances amazighe. Il est également auteur de livres sur le théâtre amazighe. Parmi ses publications : *La littérature amazighe contemporaine au Rif* (co-écrit), *La littérature amazighe contemporaine au Maroc*, *Le comique amazigh : l'ironie dans la culture amazigh*.

Mail : azarual64@yahoo.fr

RÉSUMÉ : Les spectacles et les festivités dites « populaires » sont les moments les plus privilégiés pour l'usage du corps dans la culture amazigh. Ces usages sont soutenus à la fois par des prises de position et aussi par des visions du monde propres à la société amazigh. Lors de ces manifestations collectives, on assiste à l'émergence d'un corps ironique et burlesque. Les techniques utilisées s'apparentent dans une large mesure à l'art du grotesque. Tout comme

les carnivals « populaires » propre aux différentes civilisations humaines, la teneur anthropologique ainsi que la profondeur significative de ces spectacles amazigh sont ouvertement orientées contre les doxa et les valeurs morales et religieuses de leurs contextes réciproques.

MOTS-CLÉS : culture amazigh, fête, corps, grotesque, masque, sacré, libération

ABSTRACT: The shows and festivities called "popular" are the most special moments for the use of the body in the Amazigh culture. These usages are supported by both basic attitudes and also by world views peculiar to the Amazigh society. During these collective manifestations, we witness the emergence of an ironic and burlesque body. The techniques used are, to a large extent, similar to the art of the grotesque. Just like "popular"

carnivals specific to the various human civilizations, the anthropological content as well as the significant depth of these Amazigh shows are openly directed against the doxa and the moral and religious values of their reciprocal contexts.

KEYWORDS: Amazigh culture, party, body, grotesque, mask, sacred, liberation

المراجع :

1- الكتب

- أوجست موليراس، المغرب المجهول، الجزء الأول، اكتشاف الريف، ترجمة عزالدين الخطابي، منشورات تيفراز ن أريف، مطبعة دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ٧٠٠٢، ط ١.
- بوعلي ياسين، الثالوث المحرم، دراسات في الدين والجنس والصراع الطبقي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ٨٧٩١، الطبعة ٢.
- جامع بنيدر، مهرجان ءمعرشار بتزنت، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، ٧٠٠٢، ط ١.
- حسن يوسف، المسرح والأنثروبولوجيا، منشورات دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ٠٠٠٢، ط ١.
- ربحان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢، ط ٣.
- عبد الله حمودي، الضحية وأقنعتها، بحث في الذبيحة والمسخرة بالمغرب، ترجمة عبد الكبير الشراقوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ٠١٠٢، ط ١.
- فؤاد، ازروال، الضحك الأمازيغي، السخرية في الثقافة الأمازيغية، مطبعة جسور، وجدة، المغرب، ٤١٠٢، ط ١.
- مرسيا، إلياد، المقدس والمدنس، ترجمة عبد الهادي، عباس المحامي، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ٨٨٩١، ط ١.
- الزهرة إبراهيم، الأيروس والمقدس، دراسات أنثروبولوجية حديثة، الناي للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا 2000.

2- المقالات

- إبراهيم أزروال، «مسخرة بوجلود: نحو تاريخية للكرنفال الأمازيغي»، مقال، الموقع الإلكتروني : www.marocnews.ma
- سعدي عبد اللطيف، «الضحك والحرية لميخائيل باختين»، إعداد وترجمة، مقال، الموقع الإلكتروني : www.m.ahewar.org
- لحسن أيت لفيقه، «دراسات حول الجنوب الشرقي، الموسيقىار «بوغانيم» الأمازيغي»، مقال، الموقع الإلكتروني: www.aitelfakih.blogspot.com
- لطيفة، بلخير، «دفاع عن أطروحة جامعية، «الجسد الكروتيسكي والكتابة الإخراجية» بين التوثيق الجامعي والسرقعة الأدبية»، مقال، الموقع الإلكتروني: www.maghress.com

والتعرض إلى الأعضاء الجنسية بهذا الشكل الضاحك والساخر، هو في الأصل يتجاوز التعرض لمسألة الجنس إلى التعرض لمسائل الأخلاق الاجتماعية والدين والسياسة، لأن هذه المسائل كلها تتماهى أو تتداخل فيما بينها بشكل معقد لدى الفرد في المجتمع الأمازيغي التقليدي. ولذا نجد في كثير من الاحتفالات الأمازيغية موضوعات الجنس والدين والسياسة تتراكم وتتشابك. ففي احتفال «باشيخ» بالريف يتورط الكل في نقد الصلاة والقضاء والدين بعد تشويه رجالها بشكل مفرط في البشاعة والقبح وبالانخراط في مشاهد أو مواقف جنسية كاريكاتورية وفجة. قد يكون هذا الغروتيسك الذي يركز على الجزء السفلي للجسد هو عودة إلى الانسجام مع أعماق النفس البشرية البدائية باعتبارها آلية دفاعية يستخدمها المجتمع في الاحتفال لتفادي كل أشكال العنف التي قد تنتج عن قمع الجسد ورغباته في الحياة العادية، إذ يصرف من خلالها الطاقات السلبية المتراكمة ويحقق التصالح مع الحالة البدئية الطبيعية التي هي حقيقة وجود الإنسان وأصله. وبمعنى آخر ما هذا الظاهر المفرط في القبح والعنف إلا انعكاس للقبوح والعنف الداخلي اللذين يجب التخلص منهما.

وبالإضافة إلى الجزء السفلي، يتجه قسم كبير من التشويه أيضا إلى الوجه، يراكم مسوخته، يغير كل ملامحه ومعالمه، يدفع به إلى أقصى درجات البشاعة، يجعله مثيرا للضحك والرعب بشكل مثير. يطمس هويته بالجمع فيه بين ما هو إنساني وما هو حيواني وما هو نباتي، يسوده بالرماد ويوسخه بالأزبال، يزينه بالقاذورات والأشياء الوضيعة...

وهذا التشويه المراكم للوجه ينتهك كل القوانين الاجتماعية والتعاليم الدينية، ويربك المنطق الفردي والاجتماعي الذي يستند إلى فكرة المقدس، ويستحضر كل النشاطات الإنسانية، ذات الطبيعة الحيوانية بصفة خاصة، من الأعماق وينشرها على أوضاع صفحة في الجسد.

ولأن الوجه هو مفتاح الأشخاص والنافذة التي يمكن من خلالها النظر إلى حقيقة دواخلهم، فإن الكثير من هذه الاحتفالات تحاول أن تتوغل إلى تشخيص المعيش للناس في المجتمع وإلى المفارقات التي يخفونها، ترسمها على ملامحهم بالأقنعة والماكياج والإكسسوارات، فتظهر فسادهم وتهورهم وظلمهم، وشبههم وانحرافاتهم، وتجعلهم مكشوفين أمام الجميع.

أما باقي الجسد الذي يتعاقد في الطابع الغروتيسكي مع الوجه والأعضاء الجنسية، فهو يشير - كما يذهب أغلب الدارسين - إلى آثار وثنية قديمة مرتبط بعبادة الكيش وتقديم القرابين للآلهة، ومرتبطة بطقوس استعادة الزمن الأول البدئي والنقي، الذي يتم خلاله طرد الذنوب والشياطين والتطهير منها.

ولذلك فإن المواقف التهتكية التي ينخرط فيها هذا الجسد الممسوخ قد تكون رمزا "للانكفاء في الليل الكوني، لما سبق التشكل في "الأموه"، لضمان إعادة التوالد الكلي للحياة وبالنتيجة خصب الأرض ووفرة المحاصيل".

إن الاحتفاء بالجسد الغروتيسكي في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية هو نوع من الخروج عن المألوف اليومي وعن المقدس والواجب، إذ يسمح ب"قول الممنوع وخرق القانون، وإبراز الأيروسية الثاوية تحت رماد الطهرانية المجتمعية"، فينتج التجدد والتحول، ويخلق الفرص للاندماج والحفاظ على التماسك الاجتماعي.

الخاتمة

إن هذه المظاهر للجسد الغروتيسكي ودلالاته في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية ما هي إلا جزء قليل من عموم مظاهره ودلالاته الواسعة، والتي لا يمكن الحديث عنها إلا في إطار بحث شامل وجامع، والتي لا يمكن فهم عناصرها إلا من خلال تفسير مقارن بين جميع الفرجات والاحتفالات المغربية حتى ينبر بعضها غوامض بعضها الآخر. كما أن إدراكها لا يستقيم إلا بإدراجها في مسار زمني يرصد تحولاتها وتغيراتها عبر الحقب والعصور.

ولاشك أن هذه المظاهر ما هي، أيضا، إلا جزء بسيط من نظام عام وشامل في نسق الفنون التعبيرية التي تفصح عن المواقف والأفكار الجماعية في التوق إلى التحرر والانفلات من كل القوانين والأخلاق السائدة، وما هي إلا فقرة في خطاب شامل يشتغل على أساليب التنكر والتقميع والمبالغة من أجل إنتاج الضحك والسخرية من المقدسات والممنوعات، ومن أجل إنتاج فرجة هائلة في فرصة خارجة عن الزمن الاجتماعي بكل مكوناته العقدية والسياسية والأخلاقية.

د. الإخفاء:

في بعض الفرجات الشعبية الأمازيغية، يعتمد اللعب على إخفاء كل معالم الجسد أو على محوها تماما، فتحوله، أي الجسد "إلى شيء غامض هو عبارة عن "كتلة موحدة، غير مميزة الأجزاء. كما في فرجة (قيبو) في منطقة الأطلس، حيث يغطي اللاعب أو المؤدي جسده كاملا بزار واحد، واضعا دلو أو يقطينة في آخر ظهره حتى لا يميز الرأس من الظهر، ثم يبدأ في الدوران واللعب والركض في كل اتجاه بحركات بهلوانية. وهذا النوع من التنكر أو التقنع هو أيضا شكل من أشكال التشويه الجسدي الذي تثير المتعة الساخرة والضاحكة، وأيضا "الخوف والرهبة، لدى المشاهدين والمتفرجين".

هـ - التهجين:

تشتهر أغلب المهرجانات والاحتفالات الأمازيغية بنزوعها الشديد نحو تشكيل الجسد اللاعب أو المشخص في صورة مهجنة، تجمع بين عناصر إنسانية وأخرى حيوانية أو نباتية. ففي موكب الفنان بوغانيم يلبس العازف والممثل الرئيسي أزياء خاصة تحمل ألوانا زاهية، ويضع قلنسوة من ريش الدجاج أو الطاووس حتى يبدو مظهره في شكل الديك. ويعتني بأن يكون رأسه حادا وشبيها برأس الديك. وفي مسخرة «باشيخ» يرتدي البطل «أسمالا ويضع حزاما من الحلقة حول خصره وينتعل خفين مثقوبين ويلف ساقيه بجلود الماعز، ويضع فوق رأسه قربة يابسة، وعل أذنيه ورقتين صغيرتين من شجيرة التين الوحشي. أما الوجه فيختفي داخل يقطينة محفورة من الداخل ومثقوبة في أماكن العينين والفم، وعلى جانبي الفم هناك نابان لخنزير».

لاشك أن هذه المظاهر من الغروتيسك الجسدي في الاحتفالات الأمازيغية ما هي إلا جزء بسيط من نظام عام وواسع من تفجير الطاقات التعبيرية عن المواقف والأفكار الجماعية في التوق إلى التحرر والانفلات من كل القيود، وما هي إلا مستوى جزئي من خطاب شامل في الاشتغال على أساليب التنكر والتقنع والمبالغة والمزج لتجسيد مشاعر «الفضاعة، والضحك والرعب، والبهجة والألم، والحياة والموت، والجد والهزل، والفيزيقي والميتافيزيقي ... «لترسيخ» ثقافة ساخرة تسعى إلى التجديد والتحول».

3- الدلالات الثقافية والانثروبولوجية:

إن هذه الأوضاع والأشكال من الفضاعة والمسخ للجسد في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية تتأسس على ذلك المبدأ الإنساني العام الذي تقوم عليه كل الكرنفالات، والذي هو مهاجمة المقدس والسخرية منه والتوجه ضد الممنوعات وضد الطريقة التي يعبر بها عنها. وذلك من خلال الانتفاض ضد «الجسد المستقيم خديم المؤسسة الاجتماعية ذي الهوية المعروفة، والفعالية المحسوبة، والانضباط المراقب باستمرار»، ومن خلال العبث به وتشتيته وتشويهه، مما يعكس - على المستوى الرمزي - عبثا بالقيم الأخلاقية والدينية والاجتماعية.

ويتجه القسم الأكبر من مسخ الجسد في هذه الاحتفالات إلى الجزء السفلي، الجزء المدنس ومركز التحريم والتجريم، الجزء «الغرائزي» والحيواني، الجزء الذي كان السبب في الخطيئة البشرية الأولى... فيقدم القضيب الرجولي في وضع مقلوب على الظهر، أو مضخما على شكل عصا طويلة ربطت به ثمار باندجان، أو مستقلا يحمله شاب في يده وهو منتصب أو يتجول به أحد الممثلين وهو يضعه في سلة... وتقدم مؤخرة المرأة - التي توقظ الغرائز - في صورة توحى بالشبق والإغراء بحيث يبالغ في تضخيمها وتحريكها واللعب بها. ويدرج كل هذا في سياق من اللعب التهريجي الضاحك والساخر، لأن المجتمع التقليدي لا يسمح باستعراض هذه الأعضاء أو الحديث عنها إلا في صيغة اللعب والمزاح.

والهزلي، والإسراف والمغالاة، والتشويه الخارج عن المألوف»، وكانت تنتشر في كل أرجاء البلاد بأريافها وحواضرها، مما ينم على أنه لم يكن مجرد لعب أو ممارسة عابرة ومعزولة، وإنما كان مجموعة الطقوس التي تعبر عن حالة ثقافية عامة ورؤية اجتماعية واضحة للإنسان والحياة.

٢- المسخ وتقنياته:

تدفع الاحتفالات الشعبية الأمازيغية الجسد إلى أبعد درجة ممكنة من الغرابة والبشاعة من خلال التشويه الذي يمزج بين ما هو حيواني أو نباتي وما هو إنساني، وبين ما هو متصل من الأعضاء وما هو منفصل منها، من خلال مسخ شكله الخارجي من حيث اللباس والطريقة في التصرف والتعبير بالحركة والإيماء وسوى ذلك. ويستخدم القناع - بكل أمثاله وأبعاده - ليغير من معالم هذا الجسد أو ليخلق له شكلا مغايرا، غريبا وبشعا يثير الرعب والضحك معا، ويوظف من أجل ذلك تقنيات عدة منها القلب والتضخيم والتشذير والإخفاء..

أ - القلب:

من أهم التقنيات التي تشغل بها عملية المسخ والتشويه في هذه الاحتفالات هي القلب الذي يعده ميخايل باختين أحد أهم ركائز الكرنفال.

ويروي عبد الله حمودي عن مهرجان بيلماون:

«يتجرد الرجل من ملابسه تماما، ولا يحتفظ إلا بكلسون. إذ ينبغي له أن يلبس هذه الجلود، غير المغسولة وغير المنقاة، على اللحم. تخاط عليه أولا تلك التي ستكون «سروالا». جربات غصيتي وقصيب الذبيحة تجعل في الخلف، بحيث تتدلى على ردفه. يشرح لنا واحد أن الأمر هكذا لأنهم يقلبون كل شيء «كيكلبو له كل شيء»... وفي مهرجان ءيمعشارن يتم قلب «الملبوس من الأزياء، واستبدال خلفه بأمامه، ووجهه بظهره، وأسفله بأعلى»...

ب - التضخيم:

تستعرض العديد من الاحتفالات الأمازيغية مسحا ضخما للكثير من الأعضاء الجسدية، لاسيما منها الجنسية، مثلما كان الأمر في الموكب الديونيزوسي المرتبط بطقوس الخصوبة. كما أنها تركز على تضخيم الأجزاء التي تزداد بشاعتها في الحجم والمظهر إذا ما انخرطت في اللعب والحركة.

ففي كرنفال ءيمعشارن يتم «حشو الملابس بعد ارتدائها وذلك على مستوى البطن، وعلى مستوى المؤخرة، أو الكاهل، بما يتيح إبراز انتفاخ كل منهما وتضخيمه. فينتفخ البطن متدليا من على الحزام الذي يدعمه. وتبرز الحدة وكذا المؤخرة على نحو فظيع لكنه مثير وممتع إذا انخرط صاحبها في ممارسة الرقص، جماعيا وفرديا».

أما في مسخرة بيلماون، فيتزيى أحد المشخصين بسروال«من المشمع الأصفر اللامع، فوق مقاسه بكثير، يتجرجر على الأرض هكذا يوحى أنه يمشي في كيس».

ج - التشذير:

يقوم المسخ عند الكثير من المشخصين في الاحتفالات الأمازيغية على تشذير الجسد وتفكيكه، وتصويره في شكل منحل ومفكك يوحى باستقلالية أعضائه عن بعضها، ومحملا بـ«دلالات الانقسام والمرونة والخفة والنزقية والحركية». في مهرجان «بركاشو»، يغطي كل جسد المشخص الرئيسي بواسطة الفدام، وهو لفائف تشبه نسيج مصفاة، توجد بين حراشف (écailles) النخل الذكر الذي سبق قطعه وجف تحت حرارة الشمس طويلا.... (و) يدلى رباط يحيط بالخاصرة إلى الدبر حتى يلف بدوره ليشكل ذنبا طويلا كئا، حيث يتم إبراز الأعضاء التناسلية».

وفي احتفال «باشيخ» بالريف، يقوم بعض الممثلين بربط حوافر الأكباش على أيديهم بطريقة تجعلها تتدلى وتتحرك في استقلال عن باقي الجسد، ويستعيدون التحكم فيها بالمسك من حين لآخر كلما احتاجوا إليها للمس طفل أو شخص ما أو للدفاع بها عن أنفسهم ضد المتفرجين أو الممثلين الآخرين..

الجسد والغروتيسك في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية

فؤاد ازروال

الثقافة الأمازيغية والجسد

الثقافة الأمازيغية هي الثقافة الأصيلة لشعوب شمال إفريقيا، وتتميز بكونها تعتمد على اللغة الأمازيغية/البربرية، وظلت لقرون طويلة شفوية تقوم على التعاير الأدبية التقليدية كالحكاية والأمثال والألغاز والشعر، وعلى التقاليد المتوارثة كالاحتفالات الجماعية الدينية والاجتماعية والزراعية. وتتميز بتنوع شديد في فنون الغناء والرقص كالأحيدوس والأحواش والركادة... وتتميز أيضا بتنوع مؤثراتها التي جاءت من الديانات التي تعاقبت وعاشت في شمال إفريقيا كالوثنية واليهودية والمسيحية والإسلام، أو التي جاءت من الحضارات التي احتكت بها مباشرة كالرومانية والإغريقية والعربية.

ومن أهم ما تتميز به العادات والتقاليد الأمازيغية اهتمامها بالجسد كوسيلة للتعبير عن معتقداتها وتصوراتها وانتماءاتها القبلية والاجتماعية، والتي كانت تظهر بوضوح في الوشم عند النساء وتصفيف الشعر عند الرجال، وفي شكل تقديم مظهره في الأعياد والاحتفالات.

كيف تم التعامل مع الجسد في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية؟

وما هي التقنيات والوسائل المستعملة في هذا التعامل؟

وما هي دلالات وغايات تسخير الجسد في هذه الاحتفالات؟

1- الجسد في الاحتفالات الشعبية الأمازيغية

شكل الجسد في العديد من الاحتفالات الشعبية الأمازيغية التقليدية مجالا واسعا للتعبير عن تمثيلات جماعية متناقضة ومتنافرة، فهو مجال للقوى الغيبية، وجامع لرموز دينية وروحية مختلفة ولتصورات ثقافية محلية خاصة، ومحل للقداسة والنجاسة في الآن نفسه... تعطى له قيمة سامية ويصبح المركز في اللعب، ويعامل أيضا خلال ذلك بكثير من الاحتقار والازدراء، فهو مرة يمتلك قوى روحية طيبة تدفع الشر والأذى، ومرة تسكنه قوى شيطانية يجب تجنبها والاحتواء منها، ومرة أخرى تختلط فيه كل هذه المعاني وسواها. إنه جسد يعبر عن التعدد والانفتاح، ويصالح بين الدنيوي والغيبوي وبين الأرضي والسمائي، ويصنع لنفسه فرصا للانعتاق والتحرر من قيود التحريم والتجريم. ويعبر هذا الجسد عن نفسه وعما يدل عليه - من حيث المكان - في الساحات العمومية للقرى والمدن، ومن حيث الزمن - في الأعياد الدينية والمناسبات الاجتماعية الكبرى، لما تتعطل - إلى حين - كل محرمات النظام الرسمي وممنوعات التعاليم الدينية، فيخلق فضاء للحياة المتحررة الزاخرة بالصور الفانطازية والراديكالية اللامعقولة الباعثة عن المرح واللعب الصاخب الذي يكسر الروتين الرسمي اليومي. ويحضر - في العديد من الأحيان - في صيغة المهرج الساخر والقبيح الضاحك، وفي صور تمزج فيها سمات شخصيات أسطورية مع أخرى دينية وشعبية تحتفل وترقص وتعربد.

تعددت الاحتفالات الشعبية الأمازيغية التي يتوجه فيها الجسد إلى اللعب المتهتك والمتحرر، كـ نيمعشارن وتشعالت و قيو وبركاشو.. ويصل هذا اللعب في بعضها إلى أقصى الدرجات الممكنة من «النشاز وعدم التناسق، المرعب